

بسم الله الرحمن الرحيم

د. يوسف شحدة الكحلوت

أستاذ الأدب والنقد المساعد

ورئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الإسلامية - غزة

المفارقة في الخطاب الشعري في ديوان " حديث النفس "

مما لا شك فيه أننا نقف اليوم أمام شخصية عملاقة مثل استشهاده مصدر عز وفخار للأمة جمعاء ، فقد اجتمعت في شخص الشهيد الدكتور عبد العزيز كل معاني الإنسانية من رحمة ورأفة ولين ، وكل معاني القوة من شدة وعزم وإباء ، فتكاملت شخصيته لينطبق عليها قوله تعالى : " أشداء على الكفار رحماء بينهم" ، فكان رحمه الله شديداً على أعداء الله المعتدين ، رحيماً بأهله وأبناء وطنه .

وقد مثل شعر الشهيد هذا الشمول النفسي المُتَّسِم بين الشدة واللين ، فمن خلال استعراضنا لديوانه ؛ نجدُه ضراً غاماً هصوراً ومقاتلاً عنيداً ، إلا أنه كان يُخفي في الوقت نفسه صورة مغايرة يظهر فيها غزير العاطفة ، مرهف الوجدان ، رقيق المشاعر تجاه الأهل و الشعب ، إن هذه المفارقة في خطابه الشعري تظهره كالغيث الذي تجتمع فيه معاني القوة والاندفاع ومعاني الرحمة والعطاء .

وإذا تناولنا جانب الصلابة والتحدي في شعر الشهيد ، فإنه يظهر فيه قوياً عنيداً لا يقبل ولا يستقبل ، وكان يوجه هذا الشعر لعدوه أو للمتخاذلين من أبناء الأمة ، أو لمن هانت عندهم الأوطان فتأجروا بها بأرخص الأثمان ، فكانت قصائده تأتي قوية كقوته رحمه الله ، شديدة الزجر لهم ، فهاهي قصيدته "التحدي" ترمي بحمها النارية في وجوه هؤلاء حين يقول :

| | |
|-------------------------------|----------------------------------|
| أحيوا ضمائركم أما بقيت ضمائر | فتجارة الأوطان من كبرى الكبائر |
| عودوا إلى أطفال غزة تسمعوا | عن مولد الإصباح من رحم الدياجر |
| عودوا إلى القسام يسلم من ظلا | م الليل بالأكفان مجداً للأواخر |
| عودوا إلى المشلول ياسين العلا | بحماسه دارت على البيغي الدوائر |
| من جوف بطن النون يهتف غاضباً | لا سلم أو يجلو عن الأقصى الكوافر |

ويعلم رفضه لكل المفاوضات التي تنتقص من حقوقنا ، بل وتلغيها في الكثير من الأحيان ويهاجمها بكل قوة ، ويجعل من رفضه صرخة مدوية ومجالاً لتقبيح المتفاوضين وتوبيخهم فيقول في قصيدة " مؤامرة " :

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| دعونا اليوم نعلنها صراحة | فشرم الشيخ تنضح بالوقاحة |
| علوج الكفر والأذئاب هبوا | إلى صهيون كي تبرى جراحه |
| فقام كبيرهم في القوم يفتي | فهز الذيل أصحاب السماحة |

أما قراءتنا للشعر الإنساني للشهيد تُلفتُ انتباهنا إلى الحب الكبير للولدِ والأمِ والزوجةِ والعمّةِ والابنةِ ، فهو الحبُّ الذي يصدرُ في معظمه عن حبهِ الأول الذي عاشَ واستشهدَ من أجله إنه حبُّ الوطنِ ، وكأنَّ حبهَ لأهلهِ جزءٌ لا يتجزأ من حبهِ لوطنه ، فكلُّ منهما يكملُ الآخرَ ويسنِّدُهُ ، فلا استقرارَ مع الأهلِ ، والوطنُ محتلٌّ ومحاصرٌ ، ولا أمانَ ولا سعادةً ، والوطنُ حزينٌ معذبٌ ، فقصائده " أحيمد ، عانقَ الشوقَ فؤادي ، ككفك الدمع ، إلى ابنتي أسماء ، إلى الحفيدةِ أسماء " وقصيدته " قرّة العين " وغيرها يمزجُ فيها بين عاطفةِ الأبوةِ المعذبةِ المشتاقَةِ الوالهةِ ، وبين النصائحِ المثبتةِ والحائِةِ على حبِّ الوطنِ وعدمِ الخنوعِ ، فيقول في قصيدتهِ " ككفك الدمع " مخاطباً ابنه أحمد:

إني أعاني اليومَ كي تحيَا غداً
واصبرْ ولا تُبدِ الكآبةَ للعِدى
بعبادةِ التقوى يبيتُ مؤكِّداً
فهي الشهادةُ يا صغيري أحمدا
وصرختُ في وجهِ الطغاةِ مرديداً
أذرتكم عند الصباحِ الموعداً

ككفك بُنيّ الدمعَ أنتَ على الهدى
ثم ابتسم رغمَ الجراحِ أحيَمدي
فالنصرُ بالصبرِ الجميلِ إذا اكتسى
ثم افتخرِ بالسجنِ إن ضمَّ الأبسا
إني رفضتُ القهرَ في أوطاننا
يا جُنْدَ صهيونَ استعدوا إنني

فحبُّه رسالةٌ ، وعيشُهُ رسالةٌ ، واستشهادُهُ رسالةٌ ، وقد وقع هذه الرسائلُ بدمهِ الطاهر حين صدق القولُ بالعملِ فصدقهُ الله وعدَّهُ حين اختارهُ شهيداً ، إلا أن الجانبَ الإنساني لا يقفُ عند الأهلِ فقط بل يتعداهم ليصل أبناءَ الوطنِ الذين حملوا لواءِ الدفاعِ عنه كعياش وعقل وصلاح ونزار وهشام وغيرهم ، والياسين أيضاً حيثُ حملَ همّةً ، وكتبَ قصيدةً يتحدثُ فيها عن سجنه ومرضيه ويدعو الله أن يخففَ عنه ، ويلطفَ به ، فيقول :

أنتَ المجاهدُ دونك القمُّ
فالطف به يا رب يا حكم
حتى يعودَ الشملُ يلتئم

يا أحمدَ الياسينَ أنتَ لها
رباه إن الشيخَ في نصب
واجعل له ولصاحبه فرجاً

وإذا أردنا أن نتحدثَ عن الشهيد الدكتور المربي ، والطبيبِ المعالج ، فهو الذي طبَّبَ الأطفالَ ، وعالجَ الشبابَ ، وشفى الأمةَ من داءِ التخاذلِ ، وأمراضِ الذلِّ والهوانِ ، ووصفَ لها علاجَهُ الممزوجَ بالعزِّ والفخارِ ، والمُزجى بالإباءِ والتضحيةِ ، فهو القائلُ :

بزغ النهار فهل تعود القهقري
رغمت أنوف الظالمين إلى الثرى
والشعب زلزال إذا يوماً حورى
والشعب بالقرآن يفتحم السذرا
عند الصباح سيحمد القوم السرى
ما عز بين الناس خوار ترى

يا شعبي المغوار دع عنك الكرى
إن الشعوب إذا تراها استيقظت
فالشعب طوفان يدك عروشهم
والشعب بالإيمان طود شامخ
قم واكسر الأغلال يا ابن عقيدتي
واستقرئ التاريخ واسبر غوره

والشاعرُ كباقي البشر يتعرضُ لحالاتِ ضعفٍ ؛ إلا أنه وفي كلِّ مرةٍ نجده يهزمُ النفسَ الأمارَةَ بالسوءِ المثبِّطةِ ، ويجيشُها لتقفَ في صفهِ تساندهُ وتشدُّ من عزمِهِ ، فيخرجُ من حالتهِ هذه وهو أكثرُ قوةً وأشدُّ تصميمًا على بلوغِ الغايةِ والهدفِ ، فيعلنُ قائلاً :

أنا لن أبيت منكسا للألمع
وعلى الزناد يظل دوما أصبعي
ولئن كرهت البذل نفسي تصفعي
من كل خوار ومحتال دعي
وإذا بذلت الغالي مجدا تصنعي

فتعودُ النفس قانعةً مستسلمةً لرغبته بل ومشجعةً ، وحائثةً على مواصلة الطريق الصعبة معه
فتقول:-

إني أعيدك أن تذلل إلى وثن أو أن يعود السيف في غمد الجراب
فاقض الحياة كما تحب فلا ولن أرضى حياة لا تظللها الحراب

وإذا كانت المفارقة قد قسمت شخصية الشاعر إلى قسمين مختلفين : أحدهما يحمل لواء
الشدة والقوة والآخر يحمل لواء اللين والرحمة ، فإننا نستطيع أن نتلمس المفارقة التي تأخذ أبعاداً
فنية في ثنايا شعره مما أضفى على بنائه الشعري جمالاً فنياً رائعاً ، ومن أمثله : المفارقة
التصويرية اللاشخصية والتي برزت في بعض قصائده خاصة في قصيدتي " أبشر فقد فاز العمل
" و " بين الأمل والفشل " والتي يظهر فيها الشاعر وكأنه متناقض مع شخصيته وأفكاره حيث
يقول :-

شعراً يجدد فينا الأمل ليفنى الليكود ويحيى العمل
لحل القضية عبر الحوار وصنع السلام ولو في زحل
فليست فلسطين حقاً لنا وإن قلت وقف فذاك الدجل
فنحن اللصوص وهم أبرياء ويافا لصهيون منذ الأزل
ونبع المياه فمن حقهم وتلك الحقائق فوق الجدل
وجمع الضرائب هم أهلها وحتى بعيد انقضاء الأجل

لقد دفعت سخرية الشاعر اللاذعة بالذين رهنوا أنفسهم بهذه الانتخابات إلى استخدام هذه
المفارقة ، إمعاناً منه في بيان فساد معتقدهم وبطلان أفكارهم .

ويلجأ الشاعر في القصيدة نفسها إلى تغيير منهجية هذه المفارقة ، فنجد في صدر الأبيات
يستغرق في المفارقة الشخصية حين يجعل وضع المناهج من شأن يهود ويعطيهم أهمية
الاستيطان والأمن على أرضنا ويحذر من إيذائهم ، وفي عجز الأبيات تكاد المفارقة تفصح عن
شخصية الشاعر من خلال تدخله لإبراز عاقبة الامتثال لأمر الشخصية المعادية ، ومن عباراته "
لينشأ جيلٌ شديد العلل ، كن كالجمال ، ستذبح ذبح الحمل ، تقودك دوماً إلى المعتقل ، وأما بأمني
فلا يحتفل " وذلك حين يقول :

ووضع المناهج من شأنهم لينشأ جيل شديد العلل
وإن صار بيتك مستوطنة فلا تغضبن وكن كالجمال
وإياك إيذاء مستوطن وإلا ستذبح ذبح الحمل
وجند اليهود ستبقى لنا تقودك دوماً إلى المعتقل
فأمن اليهود أهم البنود وأما بأمني فلا يحتفل

وأخيراً فإن هذه القراءة السريعة في شعر الدكتور عبد العزيز الرنتيسي لا تفيهُ حقهُ ، فهو أكبر وأعظم من ذلك بكثير، رحمه الله تعالى ، وأسكنه فسيح جناتِهِ وألحَقْنَا به شهداء مع النبيين والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.